

بسم الآب والأبن والروح القدس الإله الواحد آمين

دروس من معمودية السيد المسيح

مقدمة :

الآباء الكهنة الموقرين , وأعضاء اللجان العامة والفرعية الكرام , والشمامسة , والخدام والخادمت , وكل الشعب المحب للمسيح في كافة كنائس الإبارشية .
أهنئكم جميعاً يا أبنائي من أعماق قلبي , بمناسبة عيد الغطاس المجيد , عيد الظهور الإلهي .
راجياً من الله أن يظهر شخصه المبارك لكل نفس , ولضعفى أيضاً .
ولا أنسى أن أبلغكم التهاني بالعيد , والسؤال عنكم , والصلوات لأجلكم , من فم أبينا وسيدنا صاحب القداسة والغبطة , البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث . أطال الله حياة قداسته , سنيناً كثيرة وأزمنة سلامية , هادئة مديدة .

وأود في هذه المناسبة السعيدة , أن أكلّمكم عن : دروس من معمودية السيد المسيح .
في الحقيقة عيد الغطاس , ما هو إلا إحياء لذكرى معمودية السيد المسيح له المجد .
ومن هذه المعمودية نتعلم دروس كثيرة ومن بينها :

١ - كشف بعض الجوانب , من شخصية السيد المسيح :

ومن بينها :

أ - القوة :

وشهد لذلك القوة يوحنا المعمدان أمام الكثيرين من الفريسيين والصدوقيين , الذين أتوا إلى معمديته قائلاً لهم : ((ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى , الذى لست أهلاً أن أحمل حذانه)) (متى ٣ : ١١) , (مر ١ : ٧) , (لو ٣ : ١٦) .
فالمسيح قوى , وقوته ذاتية , وغير محدودة في كل شئ .

ب - الاحترام للآخرين , وخاصة للكهنوت :

ولذلك قال الكتاب : ((حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن , ويعتمد منه . ولكنه يوحنا منعه قائلاً : أنا محتاج أن أعتمد منك , وأنت تأتى إلىّ . فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن . لأنه هكذا يليق بنا , أن نكمل كل بر , حينئذ سمح له)) (مت ٣ : ١٣ - ١٥) .

وبكونه أتى وطلب المعمودية من يوحنا , وأعتمد منه , هذا تأكيداً صارخاً لاحترامه للكهنوت الذى أقامه , ولعمله بين الناس أيضاً . وهناك مثال آخر يثبت إحترام المسيح للكهنوت , نجده بعد أن شفى الأبرص قال له : ((اذهب وأرى نفسك للكاهن , وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة له)) (مت ٨ : ٤) , (مر ١ : ٤٤) , (لو ٥ : ١٤) .

وغير ذلك وقت أن ظهر لشاول الطرسوسى , وهو فى طريقة إلى دمشق , وأصابه بالعمى نتيجة إضطهاده للكنيسة , لذلك صرخ شاول قائلاً : ((ماذا تريد يا رب أن أفعل ؟ فقال له الرب : قم وأدخل المدينة , فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل)) (أع ٩ : ٦) .

ثم أرسل إليه حنانيا الرسول قائلاً له : ((قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك فى الطريق , الذى جئت فيه لكى تبصر وتمتلئ من الروح القدس . فلو وقت وقع من عينية شئ كأنه قشور , فأبصر فى الحال وقام واعتمد)) (أع ٩ : ١٧ , ١٨) .

وبكونه الرب يرسله لحنانيا , لكى يبشرها بالإيمان ويعمده , بالرغم من ظهوره له شخصياً , هذا يعنى احترامه للكهنوت ولعمله بين الناس .

وبالإضافة إلى ذلك , ومن احترام الرب للكهنوت نجده يقول للرسول في سفر الأعمال : « افرزوا لى برنابا وشاول , للعمل الذى دعوتهما إليه . فصاموا حينئذ وصلوا , ووضعوا عليهما الأيادى وأطلقوهما » (أع ١٣ : ٢ , ٣) .

كان من الممكن أن يرسلهما الرب للخدمة . من غير الرسل ولكن هذا وضع غير صحيح , لأنه لا بد أن يُساموا أولاً , بيد الأباء الرسل . ثم يرسلوا وهذا هو الوضع الصحيح . وهناك أمثلة كثيرة فى الكتاب المقدس , تؤكد على احترام المسيح للكهنوت ولعملة بين الناس . وهذا يعلمنا احترام الكهنوت الذى أقامه السيد المسيح , لأن الكهنوت أساساً هو كهنوت المسيح . لذلك قال : « الذى يسمع منكم يسمع منى , والذى يرذلكم يرذلنى , والذى يرذلنى , يرذل الذى أرسلنى » (لو ١٠ : ١٦) .

ج - وهناك جانب آخر فى شخصيته , وهو جانب الاتضاع :

بالرغم من أنه هو الرب والخالق ليوحنا المعمدان , نجده يأتى إليه فى إتضاع ويطلب أن يعتمد منه , ولذلك منعه يوحنا قائلاً : « أنا محتاج أن أعتمد منك , وأنت تأتى إلى . فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن . لأنه هكذا يليق بنا , أن نكمل كل بر , حينئذ سمح له » (مت ٣ : ١٤ , ١٥) . والعجيب فى اتضاع مخلصنا أنه لم يعتمد أولاً , بل اعتمد بعد جميع الشعب , كما يذكر القديس لوقا الرسول : « ولما اعتمد جميع الشعب , اعتمد يسوع أيضاً » (لو ٣ : ٢١) .

فعمودية السيد المسيح كشفت عن اتضاعه , وعن أتضاع يوحنا المعمدان أيضاً . ولم تكن هى المعمودية الفريدة التى أظهرت اتضاع مخلصنا , بل قبوله أيضاً التجسد كإى إنسان منا , وقضائه فترة على الأرض وصلبه , وموته كل هذه ألوانا من الأتضاع . وصدق وقت أن قال : « تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب , فتجدوا راحة لنفوسكم » (مت ١١ : ٢٩) .

د - وغير ذلك من هذه الجوانب , جانب آداب الحديث مع الآخرين :

ولنلاحظ هذا فى حديثه مع يوحنا المعمدان , وقت أن تراجع عن عماده إتضاعاً منه قال له : « اسمح الآن حينئذ سمح له » (مت ٣ : ١٥) . وفى موضع آخر شهد الكتاب , بآداب حديث المسيح مع الآخرين فقال : « لا يخاصم ولا يصيح , ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته » (مت ١٢ : ١٩) .

وقال أيضاً ليهوذا الذى أسلمه : « يا صاحب » (مت ٢٦ : ٥٠) . ولم يقل له يا خائن , بالرغم من استحقاقه .

٢ - وأيضاً معموديته كشفت , إنه هو الذى سيعمد بالروح القدس ونار :

وهذه هى شهادة يوحنا المعمدان للفريسيين والصدوقيين : « أنا عمدتكم بماء هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » (مت ٣ : ١١) , (مر ١ : ٨) , (لو ٣ : ١٦) , (يو ١ : ٣٣) . وقوله يعمدكم بالروح القدس ونار , وهذا يعنى : أنه هو الذى يرسل الروح القدس فى المعمودية , ويأخذ من دمه إلى جوار الماء , ويعطى للمعمد عطايا كثيرة .

وهذا لا يفهم كما يفهم البعض , أن معمودية الروح القدس , هى مجرد تغيير حياة الإنسان بواسطة الإيمان أو التوبة . لكن الوضع الصحيح للعماد بالروح القدس ونار , يتم من خلال جرن المعمودية , والكتاب المقدس يثبت ذلك .

٣ - وفوق كل هذا معمودية الرب , أظهرت أنه هو الديان :

ونجد هذا فى قول يوحنا لليهود عنه : « الذى رفشه فى يده , وسينقى بيده . ويجمع قمحة إلى المخزن , أما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » (مت ١٢ : ١) , (لو ٣ : ١٧) .

٤ - ولا أنسى أن أقول فى معمودية السيد المسيح , أنها علمتنا وجوب تكلمة البر :

وهذا هو قوله ليوحنا المعمدان : « لأنه هكذا يليق بنا , أن نكمل كل بر » (لو ٣ : ١٥) .

فكان من اللازم أن يتعمد السيد المسيح , لتكلمة الطرق المودية إلى البر وخاصة للذين يتبعونه . وهكذا بعد ذلك اجتاز طرق مودية إلى البر , كأعداد العشاء الأخير والصليب , والموت , والقيامة , والصعود , وإرسال الروح القدس .

ومن لزوم تكلمة البر قال لنا معلمنا بولس الرسول : « الذى بدأ فيكم عملاً صالحاً , يكمله إلى يوم يسوع المسيح » (فى ١ : ٦) .

فألبداً فى البر أمر مهم فى الحياة الروحية , والأهم منه الاستمرارية فيه إلى النفس الأخير . ومن هنا قال مخلصنا : « يليق بنا , أن نكمل كل بر » .

٥ - ومن معموديته أيضاً , تسلّمنا أن العماد بالتغطيس لا بالرش :

ولذا قال الكتاب : ((فلما اعتمد يسوع , صعد للوقت من الماء)) (مت ٣ : ١٦) , (مر ١ : ١٠) . ونحن نقول معمودية السيد المسيح بالتغطيس لا بالرش , لأنها جاءت من عبارة : ((صعد للوقت من الماء)) . وقوله صعد من الماء , تعنى أنه كان غاطساً .

وعبارة صعد من الماء نجدها تتكرر في معمودية الخصى الحبشى , وقت أن عمده القديس فيلبس الرسول ولذلك يقول الكتاب : ((ولما صعدا من الماء , خطف روح الرب فيلبس . فلم يبصره الخصى أيضاً , وذهب في طريقة فرحاً)) (أع ٨ : ٣٩) .

٦ - ومن الدروس المهمة في معمودية السيد والرب , أنها كشفت لنا عن ذات الله الواحدة , التي تقوم على ثلاثة أقانيم :

ومن هنا وقت معموديته : ((السموات قد انفتحت له , فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه . وصوت من السموات قائلاً : ((هذا هو أبني الحبيب , الذي به سررت)) (مت ٣ : ١٦ , ١٧) (مر ١ : ١٠ , ١١) , (لو ٣ : ٢٢) .

فالتثليث والتوحيد كان واضحاً في معمودية السيد المسيح , لأن الروح القدس كان نازلاً عليه مثل حمامة , والسيد المسيح (الابن) في الماء , والآب ينادى من السماء قائلاً : ((هذا هو أبني الحبيب , الذي به سررت)) .

٧ - ومن الزوايا المهمة في هذه المعمودية , هي إثبات بنوة المسيح للآب :

ولهذه البنية شهد الآب وقت المعمودية قائلاً : ((أنت أبني الحبيب , الذي به سررت)) (مت ٣ : ١٧) , (مر ١ : ١١) , (لو ٣ : ٢٢) . ولهذا شهد أيضاً يوحنا المعمدان أمام اليهود قائلاً : ((وأنا قد رأيت وشاهدت , أن هذا هو ابن الله)) (يو ١ : ٣٤) .

وقول الكتاب عن المسيح له المجد أنه ابن الله , لا تقلل من شأنه في الألوهية عن الآب . ولا يفهم منها أنها بنوة من تناسل جسدي , إنما يفهم منها انه من طبيعة الآب ومن جوهره . كولادة الكلمة من العقل .

٨ - كما أن معموديته أثبتت بنوته للآب , فهي أيضاً أظهرت لأهوته :

ولذلك نسمى عيد الغطاس بعيد الظهور الإلهي . ولذلك تجددوا يوحنا المعمدان يقول لليهود عن المسيح له المجد : ((في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه)) وقال أيضاً عن نفسه : ((وأنا لم أكن أعرفه لكن ليظهر لإسرائيل , لذلك جئت أعمد بالماء . وشهد يوحنا قائلاً : ((أنا قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء , فأستقر عليه . وأنا لم أكن أعرفه , ولكن الذي أرسلنى لأعمد بالماء ذاك قال لى : الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه , فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس . وأنا قد رأيت وشهدت , أن هذا هو ابن الله)) (يو ١ : ٢٦ , ٣١ , ٣٢ , ٣٣ , ٣٤) .

إذاً معمودية السيد المسيح كانت لازمة , لظهور لاهوته لليهود وليوحنا , ولنا أيضاً .

٩ - وبالتالي أيضاً كما أن المعمودية أظهرت لاهوته , فهي أيضاً أظهرت

أزليته :

ومن هنا قال يوحنا المعمدان : ((هذا هو الذي يأتى بعدى , الذي صار قدامى هذا هو الذي قلت عنه يأتى بعدى , رجل صار قدامى لأنه كان قبلى)) (يو ١ : ٢٧ , ٣٠) .

ومعروف حسب الكتاب أن يوحنا المعمدان , أكبر من المسيح بالجسد بستة شهور , لأنه ولد بعده . ويكون يوحنا يقول عنه : ((رجل صار قدامى , لأنه كان قبلى)) فهذا يرجع لأزليته .

١٠ - وفي سياق الحديث عن معمودية المسيح له المجد , نقول أنها أظهرت

أنه حمل الله الذي يرفع خطايا العالم :

وقال ذلك يوحنا المعمدان لليهود , وقت أن رأى السيد المسيح مقبلاً ليعتمد منه , فصرح قائلاً عنه : ((هوذا حمل الله , الذي يرفع خطية العالم)) (يو ١ : ٢٩) .

١١ - وفي المعمودية أيضاً المسيح مسح , كاهناً ورئيس كهنة , وملكاً ونبياً :

والكتاب أنبا بذلك عن هذه المسحة : ((وليأتى بالبر الأبدى , وبختم الرؤية والبنوة , ولمسح قدوس القديسين)) (دا ٩ : ٢٤) .

أ - تأكيد الكتاب على مسحة كاهناً , ورئيس كهنة :

((أقسم الرب ولم يندم , أنك أنت الكاهن إلى الأبد , على رتبة ملكى صادق)) (مز ١١٠ : ٤) , (عب ٥ : ٥) .

((لاحظوا رسول اعترافنا , ورئيس كهنته المسيح يسوع . حال كونه أمين للذى أقامه , كما كان موسى أيضاً فى كل بيت)) (عب ٣ : ١) , (عب ٢ : ١٧) , (عب ٤ : ١٤ , ١٥) , (عب ٥ : ١٠) , (عب ٦ : ٢٠) , (عب ٧ : ٢٦) , (عب ٨ : ١) , (عب ٩ : ١١) , (ابط ٥ : ٤) .

ب - مسحة ملكاً :

يقول معلمنا بولس الرسول بالروح القدس : ((أما عن الابن كرسيك يا الله إلى دهر الدهور , قضيب استقامة هو قضيب ملكك , أحببت البر وأبغضت الإثم , من أجل ذلك مسحك الله إلهك , بزيت الأبتهاج أكثر من شركائك)) (عب ١ : ٨ , ٩) , (أع ٤ : ٢٥ - ٢٨) , (مز ٢ : ١ , ٢ , ٦) , (مز ٤٥ : ٦ , ٧) .

ج - مسحة نبياً :

تنبأ أشعيا النبي عن مسحة نبياً فقال : ((روح الرب علىّ , لأن الرب مسحني لأبشر المساكين , أرسلني لأعصر منكسرى القلوب . لأنادى للمسيبين بالعنق , وللمأسورين بالإطلاق , لأنادى بسنة مقبولة)) (أش ٦١ : ١ , ٢) . وتحققت هذه النبوءة فى العهد الجديد (لو ٤ : ١٨ , ١٩) . وأكد على ذلك القديس بطرس الرسول : ((يسوع الذى من الناصرة , كيف مسح الله بالروح القدس والقوة ؟ الذى جال يصنع خيراً , ويشفى جميع المتسلط عليه إبليس , لأن الله كان معه)) (أع ١٠ : ٣٨) .

وبكون المسيح مسح كاهناً ورئيس كهنة , وملكاً ونبياً . هذا لا يتعارض مع الوهيته , لأن كل هذه الأمور وأمثالها من الناحية الناسوتية . أما من الناحية اللاهوتية , فهو الله الظاهر فى الجسد (١ تي ٣ : ١٦) .

١٢ - وإلى جوار ذلك المسيح بمعموديته , أبطل الختان , لأنه كان الختان , رمزاً للمعمودية :

والختان فى جوهرة , ما هو إلا قطع جزء من الجسم , وبهذا يكون الإنسان عضواً فى شعب الله قديماً , كما قال السيد الرب لإبراهيم . والمعمودية فى العهد الجديد , هى موت وقيامه مع المسيح له المجد , وعضوية فى جسد المسيح الظاهر الذى هو الكنيسة .

١٣ - أخيراً من الأمور الجوهرية فى معمودية السيد المسيح , هى تأسيس معمودية العهد الجديد .

ولذلك أعطانا نفسه مثلاً وتعمد قبلنا , لكى نقتدى به ونتعمد مثله .

وكل عام وأنتم جميعاً بخير .

تحريراً فى ١٩ / ١ / ٢٠٠٤ م

بنعمة الله

الأنبا أغاثون

أسقف مغاغة والعدوه
